

أريك فروم

وعالم النفس الاجتماعي التحليلي

د. عبّاس مسكني

حتى الآن نعيش في أجواء محاولات الجمع بين الماركسية والتحليل النفسي بعد أن بدأها رايش وفروم وماركوز.

ان القضية الأساسية التي شغلت فروم ووضعت في مواجهة فكرية حادة مع رايش، بصورة خاصة^(٢) تتمحور حول إمكانية استعمال مفاهيم ومنهجية التحليل النفسي في تحليل الظاهرة الاجتماعية والصلاحيات العلمية لهذا الاستعمال.

وأريك فروم، المحلل النفسي والفيلسوف، ولد وعاش في ألمانيا (التي ترعرع فيها الفكران الماركسي والفرويدي) حتى سنة ١٩٣٤، وانتقل بعدها الى الولايات المتحدة الأمريكية (التي يغلب على أجوائها العلمية المنحى الأنكلو سكوفي التجريبي) ثم عاد وعاش في إيطاليا حتى سنواته الأخيرة.

وحياته العلمية هذه تظهر من خلال أبحاثه:

فقد كتب حول «الخوف من الحرية» و «التحليل

بعد غياب أريك فروم نرى من المفيد ان نعرض باختصار العناصر الأساسية لفكره والتوجهات العامة لأبحاثه؛ وذلك بهدف وضع تراثه في إطار الحركة الفكرية العامة التي ساهم في تحديد معالمها.

إن أريك فروم هو واحد من ركائز الثالوث التحليلي الماركسي الذي خلق حركة بحث علمية وفكرية عامة عملت على إبراز التفاعل والتقاطع بين الفكر والمنهجية الماركسية والفكر والمنهجية التحليلية العيادية. وقد انطلقت هذه الحركة العلمية، بعد عشر سنوات تقريباً من نهاية الحرب العالمية الثانية، من أجواء النقاش الحاد بين ماركوز (Herbert Marcuse)

وأريك فروم (Erich Fromm) حول التحليل النفسي الثقافي، وقد تركز النقاش في الأساس حول ما يمكن قبوله من الفكرين الماركسي والفرويدي وما يمكن تعديله منها^(١). وكان هذا الحوار قد بدأ مع أبحاث رايش وبخاصة في الفترة الممتدة ما بين سنتي ١٩٢٦ و ١٩٣٦. وما زلنا

النفس والدين» و «فن الحب» و «المجتمع المرتن»
و«الأمل والثورة» و«أزمة التحليل النفسي»
و«البوذية والتحليل النفسي»... و«نزعة التدمير عند
الإنسان».

وفي مجمل أبحاثه يُظهر أريك فروم امتلاكه الموسوعي
لموضوعات وميادين الفيزيولوجيا العصبية، والتاريخ
والانثربولوجيا وعلم نفس الحيوان والتحليل النفسي.

لقد بدأ التفاعل والتقاطع بين الماركسية والتحليل
النفسى في ذهن أريك فروم في بدايات الثلاثينات حيث
كتب مقالاً بالغ الأهمية والدلالة في هذا المجال بعنوان
«مهمة وطريقة علم النفس الاجتماعي التحليلي»^(٣).

في هذا المقال يطرح فروم مجموعة من التساؤلات حول
إمكانية قيام علم النفس الاجتماعي التحليلي وحول مهماته
ومنهجيته. وأبحاثه اللاحقة طورت كثيراً في محاولاته التي
بدأت في المقال المشار إليه وبقيت في الإطار الأول الذي
حدده.

إن العناصر الأساسية لفكر أريك فروم يمكن أن
تستنبط من طريقته في رؤية التقاطع والتفاعل بين
الماركسية والتحليل النفسي وما يمكن أن ينتج عن ذلك من
مناهج وطرق أبحاث في مجالات علم النفس.

فكيف يطرح فروم شخصياً هذه المشكلة؟

أولاً: يشير فروم الى كون التحليل النفسي علماً مادياً؛
والحقائق المادية التي توصل إليها هذا العلم تتلخص في
الآتي:

النزوات والحاجات هي التي تحرك السلوك الإنساني،
وهي تصدر عن أرضية فيزيولوجية ولكن لا تلاحظ
مباشرة؛ والأخلاقيات الاجتماعية تموّه النزوة ورغباتها عن
طريق العقلنة الايديولوجية، والحاجات لا تقتصر فقط
على الغذاء والحفاظة على الوجود والاستمرار (الجوع
والعطش...) وإنما تطال النزوة الجنسية التي تبرز من خلال
التوترات الجسدية في المناطق الغلمية للجسد (تلك المناطق
التي تحرك اللذة).

وتواجه النزوات هذه بالواقع الاجتماعي الذي يراقب
حركاتها ويقتنها تبعاً لبنيتها.

وبنية النزوة عند الفرد خاضعة لعاملين: البنية
الاجتماعية (La Constitution) التي يتركها الفرد منذ
الولادة؛ والقدر الوجودي (Le Destin de son
Existence) الذي يتبدى مع بدايات الطفولة الأولى.

وعلى صعيد إشباع النزوة الجنسية، فإنها يمكن أن
تنتظر أكثر بكثير من النزوة الفذاوية، ونزوة الجنس
تخضع للكبت والتسامي، ويمكنها أن تشبع هوائياً (على
خلاف نزوة الغذاء والاستمرار التي لا يمكن أن تشبع
الا فعلياً). والنزوة الجنسية يمكن أن تظهر - هوائياً -
على شكل مازوشي أو سادي مثلاً.

ثانياً: حول المادية الجدلية والمادية التاريخية:

يرى فروم بأن المجتمع هو عبارة عن أفراد أحياء
يخضعون لقوانين التحليل النفسي المشار إليها؛ ويشير في
هذا المجال الى خلافه مع رايش:

فمن الخطأ برأيه (كما ذكر رايش) حصر التحليل
النفسى في إطار علم النفس الفردي فقط والقول بأن
التحليل النفسي لا ينطبق على الظواهر الاجتماعية
(السياسة والوعي السياسي...).

فعلم النفس الاجتماعي التحليلي هو علم فهم البنية
النزوية لجماعة ما «بمواقفها اللبيدية اللاواعية» انطلاقاً
من بنيتها الاقتصادية الاجتماعية. ويتم ذلك من خلال
دراسة دائرة الأسرة التي يخضع الطفل في إطارها،
وبشكل غير مباشر، لضغط الظروف الاقتصادية
والاجتماعية لوالديه، عن طريق القيم التربوية للطبقة
الاجتماعية التي تنتمي إليها الأسرة.

وهكذا فإن العلاقات بين الأب والأبناء في الأسرة
البروليتارية تختلف عنها في إطار أسر الطبقات
الأخرى.

ان الأسرة، برأى فروم، هي الجهاز السيكلوجي
للطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها. (ولذلك فإنه يشير

هنا الى النسبية الاجتماعية لمركب الأوديب).

ولو طبقنا طريقة علم النفس الفردي التحليلي على الظواهر الاجتماعية، لتوصلنا الى الطريقة، النفس الاجتماعية، التي تعمل على « تفهم عمليات التكيف الاجتماعية والسلبية للجهاز الزوي مع الواقع الاقتصادي والاجتماعي ». ذلك ان الجهاز الزوي هو نفسه معطى بيولوجي يتأثر ويتشكل تبعاً للواقع الاقتصادي الاجتماعي السائد (عبر حلقة الأسرة).

ويشير فروم الى بعض التأويلات الخاطئة للنظرية الماركسية، فيرى خطأ راسل (Bertrand Russel) الذي يعتقد بأن ماركس قال بوجود دافع « كسب المال » كمحرك أساسي للسلوك الانساني⁽⁴⁾.

ويشير كذلك الى خطأ هنري دومان (Henri de Man) الذي يقول بأن ماركس يمتدّد بوجود غريزة الربح (l'Instinct de Profit) عند الانسان⁽⁵⁾.

ويرى فروم رداً على ذلك كله، مع ماركس، بأن الانسان هو الذي يصنع التاريخ، وبأن الحاجات هي التي تحرك الأعمال والمشاعر الانسانية، وبأن هذه الحاجات تتضاعف وتتغير من خلال تطور المجتمع، وبأن هذا التغير يمثّل شروط مضاعفة العمل الاقتصادي.

ويرى كذلك، بحسب مفهومه للمادية الجدلية، ان العامل الاقتصادي لا يلعب دوراً في علم النفس الا حيث تجد الحاجات الانسانية إشباعها بواسطة انتاج الأشياء والوسائل المادية لهذا الاشباع (وهذا ينطبق خصوصاً على حاجة الغذاء والاستمرار). وهكذا، فإن هذه الحاجات تعمل كرافعة لعملية الانتاج. وأما حاجة الزوجة الجنسية فإن لها مساراً آخر يدرسه التحليل النفسي.

ان التحليل النفسي، كما يرى فروم، هو الذي أعطى علم النفس إمكانية الحديث عن « غريزة الربح »، بحيث أنها تلعب في الاقتصاد النفسي دوراً أساسياً مع غيرها من الحاجات مثل التناسل والسادية والرجسية، وان الربح ليس له أساس الامتلاك

والغزو، وإنما هو التعبير عن حاجات نرجسية: أي ان يُعترف بالفرد لذاته ومن خلال الآخرين.

ثالثاً: كيف تبرز علاقة التحليل النفسي بالمادية التاريخية:

يرى أريك فروم بأن التحليل النفسي يمكن ان يغني المادية التاريخية بمعرفة أوسع بالتكوين الانساني، وبواحد من أهم عناصره (تكوين الجهاز الزوي) الذي يتدخل بعمق في العملية الاجتماعية. ويرى بأن الجذور الليبيردية للجهاز النفسي تشكل جزءاً أساسياً من البنية التحتية.

ويشير فروم بالتحديد الى أن التحليل النفسي يمكن ان يفسّر ما لم يفسره ماركس وأنجز عن كيفية الانتقال من الأشياء المادية الى الفكر الانساني عبر « رأس الانسان ».

وعلى هذا يرى بأن علم النفس الاجتماعي، استناداً الى التحليل النفسي، يستطيع ان يفسر إنتاج الايديولوجيات عن طريق تفسير كيفية تحرك وانتقال الواقع الاقتصادي استناداً الى حياة الانسان الزوية.

والتحليل النفسي يستطيع ان يشرح عملية التناك الاجتماعي: فالتناك لا يتم فقط من خلال أجهزة القمع (البوليس، العدالة، الجيش)، وإنما يتم أيضاً عن طريق القوى الليبيردية التي تشكل اللحمة التي تجمع الناس وتدفعهم الى إنتاج الايديولوجيات.

ويستطيع التحليل النفسي أيضاً ان يفسر عملية خضوع الأثرية للأقلية، فيرى في ذلك عملية تثبيت وإعادة (Fixation et Repetition) واستمرارية أيضاً للموقف الذهني الذي كان البالغ يتخذه (عندما كان طفلاً) حيال أهله (ولا سيما حيال الأب في إطار الأسرة البرجوازية). ان في ذلك مزيجاً من الإعجاب والتخوّف والايان بالقوة والذكاء والأهداف الأبوية مما يظهر على شكل تقدير كبير ومضخّم للصفات الفكرية والأخلاقية التي يمتلكها الأب.

ان فروم يرى توازياً بين التثبيت على الأب والتثبيت على الطبقة المسيطرة. والعلاقات الليبيرية تختلف باختلاف الطبقات. فالعلاقات الليبيرية مع القائد السياسي تختلف عنها مع القائد البروليتاري الذي يتأهى بطبقة ويخدم رغباتها، مع أنه يقودها الى القائد الدكتاتور الذي يقود الجماهير فقط لأنه رجل قوي ومن طبقة مهيمنة.

رابعاً: مهمة وطريقة علم النفس الاجتماعي التحليلي:

يمكن ان نتلخص مع فروم كما يلي:

• إن طريقة التحليل النفسي الفرويدي هي التي يجب ان تُعتمد في علم النفس الاجتماعي التحليلي، وذلك عبر تطبيقها على الظواهر الاجتماعية، مما يؤدي الى فهم المواقف النفسانية المشتركة بين الأفراد ودلالاتها الاجتماعية.

و يتم ذلك انطلاقاً من عمليات التكيف السلبية والايجابية للجهاز الزوي مع الشروط الوجودية الاجتماعية والاقتصادية.

• ومهمة علم النفس الاجتماعي التحليلي هي إظهار التوجهات الليبيرية الأساسية اجتماعياً، وعرضُ وشرح البنية الليبيرية للمجتمع، وذلك عبر تفسير هذه البنية وتطور وظيفتها في العملية الاجتماعية، مما يبرز الدور الأساسي لنظرية نشوء الايديولوجيات تبعاً لتقاطع (Interaction) الجهاز الزوي مع الشروط والظروف الاقتصادية الاجتماعية.

لقد ساعدت مواقف فروم الى حد بعيد على تحديد موضوع ومنهجية علم النفس الاجتماعي العيادي. وهذا ما ظهر من خلال أبحاثه ودراساته من جهة، ثم من خلال أبحاث ودراسات مجادلته من جهة ثانية (ولا سيما رايش الذي دخل معه في نقاش شهير أشرنا اليه في هذا المقال). على أننا نستطيع ان نوجه الى فروم مجموعة من الانتقادات عنوانها انه لم يحدد بوضوح المستوى الذي يدرسه علم النفس الاجتماعي (لأن الظاهرة الاجتماعية لا تُدرس الا اجتماعياً والظاهرة النفسانية لا تُدرس الا نفسانياً، بينما نرى فروم يقول بأن التحليل النفسي يمكن ان يدرس الظاهرة الاجتماعية) ونحن نوافق في ذلك رايش في مواقفه النقدية من أريك فروم؛ ونقرّ في الوقت نفسه بأن فروم استطاع بمجادة أن يبرز القدرة الفائقة للجهاز الزوي على التكيف مع القدر الوجودي للانسان في الإطار الاجتماعي الذي يعيش فيه.

ونظرة نافذة الى الأحداث اللبنانية خاصة، والعربية عامة (وكذلك الى أقطار العالم الثالث) تفيد بما لا يقبل التردد بأن ما يجري يصدر عن عمق نزواتنا المكبوتة التي تقنص المناسبة للتعبير الانفجاري واللاعقلاني عن أهدافها ويتم كل ذلك في جو اجتماعي مفكك ولاعقلاني - وأكاد أقول «بدائي» - فرضته علينا «حضارة عقلانية» تمرّت بشئ أنواع القمع والاستغلال «للسموب غير المتحضرة»! حيث تم تحويلنا، عن طريق الفوضى التي نعيشها، الى مجتمع خاضع ولا واع ينفذ مجبوانية نزوية ما صممه له الوعي الاستعماري «المتحضر».

هوامش

- (1) Louis FRAENKEL, Le Freudo-Marxisme in, Freudo-Marxisme et sociologie de l'aliénation- 10/18. Paris- 1974.
- (2) Reich- L'application de la psychanalyse a la recherche historique. in, Freudo-Marxisme et sociologie de l'aliénation. 10/18. Paris 1974 P. P 15-39.

- (3) Erich Fromm- Tache et methode d'une psychologie sociale analytique» in Freudo-Marxisme et sociologie de l'aliénation- 10/18- Paris 1974. P. P 41-81
- (4) Bertrand Russel; Warum ist die psycho-analyse popular? article publié en 1927 dans la revue Juive Forward, cité par Kantsky, Der historische Materialismus t. I, P. 340/1.
- (5) Zur psychologie de Sozialismus, 1927 P. 281.